الثقافة العراقية وتصحيح المسارات

مهدي النجار

ربما سنرتكب زلات فنتازية إذا جلسنا مع السياسي العراقي المعاصر، المتدين أو الليبرالي العلماني على السواء، المشغول في هموم تنظيمه بل في هموم الناس التي تفاقمت في هذه المناخات المتشابكة، الغامضة، العسيرة، وسألناه من وجهة نظر ثقافية:

هل نحن رفضنا ثقافة النظام الدكتاتوري السابق أم رفضنا الدكتاتور نفسه وماذا بعد الدكتاتور؟! في الحقيقة نحن نـدين في عـرض مثل هـذا السؤال لحوارية ساخنة بين الباحث العراقي الأستاذ سرمد الطائي وأحد زعماء بعض الأحزاب (مجلة الوعي المعاصر ع١٢ بيروت ٢٠٠٣) يقول فيها: (كنت أتحدث مع زعيم بعض الأحزاب العراقية قبل بضعة أشهر حول حرية التعبير عن الرأي، ولم استغرب حين قال: إننا مسؤولون شرعياً عن الجام كل الأفواه التي تنطق بما لا ينسجم مع أيديولوجيتنا. قلت له: إذن فأنت لا تعترض على سياسية الصوت الواحد التي اعتمدها نظام صدام، بل تعترض على لون الايديولوجيا التي يتبناها صدام وحسب. فقال نعم، ولكن صدام مع الباطل ونحن مع الحق! .....هذا الرجل موجود في العراق يحاول أن يجد لنفسه مكاناً في المؤسسات (الدستورية) الموعودة!) نترك هذه الحوارية التي يقشعر لها العقل ونعود إلى سؤالنا الثقافي وسنعتبر إن السياسي الذي نحاوره أكثر ثقافة من ذلك السياسي الإجباري كما ورد في الحوارية ونتكهن بأن جواب سيكون كالآتي: إننا رفضناهما معاً ثقافة النظام ورأس النظام وهذا الجواب ينبغي أن يؤسس لثقافة جديدة لا ترجح أنتظار زعيم آخر جديد فيه مواصفات (البطل الأسطوري) وهو يأتي على فرس أبيض ليحقق يوتيبيا طفولية نلهث وراءها لنجدد له الولاء المطلق والحب الخاشع والبيعة السرمدية بمعنى أن الثقافة الجديدة تتطلب تخريب النظم المعرفية وشبكات المفاهيم المنصرمة وإلغاءها لا التسوية معها أو استثمارها بشكل آخر خال من الطقوس الدكتاتورية، تلك الشبكات والنظم التي ألغت بجدارة فاعلية العقل وأوجدت الفاشية بلا تردد كحل أفضل فهي، كما يشير عبد الكريم سروش (قضايا أسلامية معاصرة ع ٢٦ سنة ٢٠٠٤) لا تشتري العقل حتى بفلس أحمر. والأنكى من ذلك إنها لم تضح بالعقل والعلم من أجل الحب، بل من أجل الكراهية. وهذا أسوأ مسلخ يؤخذ اليه العقل ليقطعوا رأسه ويسلخوا جلده. إن هذه الثقافة إلا كراهية والاستبدادية:

أولاً: شملت كل عالمنا العربي والإسلامي بلا استثناء وإن تحسنت في بعض الاصقاع شكلياً إلا أنها تفاقمت وبشكل مفزع من أطرافها الأكثر خطورة حيث كنا نمني أنفسنا في الجمهوريات (التقدمية) بحكاية الانتخابات وإذا بها تبدع صيغة تنظيمية مهجنة تظهر للمرة الأولى في الاجتماع السياسي العالمي أسمها: (الانتخابات الوراثية) فكل زعيم يضع تحت أبطه ولده البار ليستخلفه (انتخابياً) من أجل سوق الرعية إلى الغد المشرق والمستقبل السعيد لأن ما حصل في زمن الأب القائد من انتكاسات وارتكاسات ونكبات واختناقات كانت بسبب المؤامرات التي تحيكها الصهيونية وتغذيها الإمبريالية ويدبرها الخونة والعملاء، هذه الشماعة الوحيدة التي اهترأت وأثقلتها معاطف تبرير الفشل السياسي. ولا تقتصر هذه الثقافة الاكراهية الاستبدادية على مستوى زعامة السلطة فحسب إنما تصدر عبر قنوات عديدة إلى المدرسة والحزب والنقابة والاتحاد والصحافة.. الخ لتهضم وتمارس على نطاق واسع كأنها حقيقة وحق.

ثانياً: والآن نعود لأصل سؤالنا الذي طرحناه آنفاً على السياسي العراقي: وماذا بعد الدكتاتورية؟ من الصعب توقع السنوات التي سيمكثها أي (زعيم) جديد في رأس السلطة، إذا قدر وحظي بها، بعد أن تمرن جيداً على طريقة المكوث على رأس حزبه أو منظمته أقل أو أكثر من ربع قرن مثلاً من خلال ثقافة الحب اللا محدود والولاء المطلق، ألا نتخوف من أن ينتقل هذا التقليد (الدكتاتوري) إلى سلطة الدولة الدستورية حال ترشيحه أو فوزه بالانتخابات؟! حبذا لو أدخلت الأحزاب السياسية والتنظيمات الدينية، والاجتماعية في أنظمتها الداخلية فقرة نراها واحدة من الأعمدة المهمة في الثقافة الديمقراطية وهى الوسيلة الضامنة لرفع الشعب إلى مرتبة المشاركة في صنع القرار أن لا ينتخب رئيسها أكثر من دورتين متتاليتين ولا تزيد الدورة الواحدة عن (٤-٦) سنوات ولا يحق له الترشيح إلا في دورة منفصلة عن تلك الدورتين وإذا لم ينتخب يظل مستشاراً مرموقاً في الحزب أو التنظيم ويمارس هواياته المفضلة خارج القيادة.

ثالثاً: حين نتصفح بطون التاريخ نجد أن هذه الظاهرة (الدكتاتورية) منسجمة تماماً مع تاريخنا السياسي ومبررة ومستساغة في الاجتماع العراقي كأن يستحيل علينا تصور (رعية) بدون (راعٍ) مطلق، هي هذه العلاقة الصعبة التي يصح أن نطلق عليها المعادلة (الرعوية) تسكن في قلب وعقل ثقافتنا الوطنية بل في الاجتماع العربي الاسلامي عموماً أما الثقافة البديلة، ثقافة العقل والاعتدال والحوار وتداول السلطة بالانتخابات، الثقافة الديمقراطية فهي تبدو ثقافة بدع وثقافة نظم أجنبية (كافرة) طارئة ودخيلة على تقاليدنا وأعرافنا، ثقافة ليس من السهل إحلالها في ليلة وضحاها في نسيج الثقافة الرعوية (الراعي - الرعية) ثقافة العصا لمن عصى.

إن العراق ينتمي إلى واحدة من أعرق حضارات العالم القديم، وهي حضارة وادي الرافدين كما ينتمي إلى محيط آسيوي عرف غالبية الحضارات العظمى في التاريخ: والحضارات (الدينية) الكبرى من اليهودية إلى المسيحية إلى الأسلام ولم تكن علاقة العراق بغيره من الحضارات هامشية بل علاقة صميمة تتبادل التأثير والتأثر، ويؤدي التفاعل الجدلي إلى مركب جديد، من هذا نحن لسنا آيسين من أن تصحح مسارات ثقافتنا الوطنية باتجاه الثقافة الديمقراطية والتي معناها أولاً وأخيراً امتلاك (حقوق الإنسان) وعكسها بين المجتمع والقيم والعقائد، إن الثقافة الديمقراطية رافعتنا الحضارية وليست مجرد استبدالات بأسماء السلطة أو زعمائها بل هي أعادة ترتيب ثقافة يصبح فيها المجتمع والسلطة في نسق يسمح للتطور بالانطلاق ونموذجاً يوقظ الاجتماع العربي الأسلامي من سحر ثقافة الرئيس الملهم أو الملك المفدى أو القائد الضرورة أو الزعيم الاوحد أو المستبد العادل وبهذه الرافعة نندفع إلى مقدمة المشهد الدولي المعاصر بمؤسسات مدينة عصرية تنتخب رئيسها عبر صناديق اقتراع (رقراقة) وتنحيه عبر التصويت ليترك واجبه القيادي ويعيش بين الناس كأي واحد منهم لا ينظرون اليه بريبة من لطخ نفسه بالدم وأغرقها بالفساد من رأسه حتى أخمص قدميه وبهذا المسار الثقافي نتخلص نهائياً من منطق عدوانيات النقد المتبادل ومنطق مصادرة والغاء ولجم آراء وأفواه الآخرين ومن أي ضرب من ضروب القسوة والحقد التاريخي أو مركب النقص الحضاري.

الحركة الثقافية في كردستان العراق

دعم وتكريم للثقافة والمثقفين

بادرت حكومة إقليم كردستان العراق إلى تكريم الكتاب والأدباء والصحفيين العاملين في كردستان العراق بمختلف أعراقهم وذلك بتخصيص رواتب شهرية تكريمية لمن بلغت خدمته في مجال عمله عشر سنوات فأكثر.

إعداد / المدى الثقافي

وأشار المدير العام للثقافة والفنون في كردستان العراق شمال حويزي قائلا (شمل هذا التكريم جميع المثقفين ومن جميع التوجهات والأفكار والذين بلغ عددهم ١٦٢٠ مثقفا في الدفعة الأولى وهناك دفعات قادمة رفع أصحابها استمارات بنتاجاتهم بعد توزيع أول دفعة إكرامية هذا الشهر).

يتضمن هذا التكريم صرف رواتب للمثقفين ابتداءا من مطلع كانون الثاني القادم، ويقول حويزي إن هذه الرواتب ستتراوح ما بين (٦٠ ألفاً و٣٠٠ ألف دينار عراقي) حسب مدة الخدمة أي ما يعادل (٤٠ إلى ٢١٥ دولارا أميركيا تقريبا) موضحا أن هذه الرواتب لا تتقاطع مع أي راتب آخر أو مساعدة أخرى يتسلمها المثقف.

ويستفيد من هذا الإجراء المثقفون غير المنتمين إلى الأحزاب الكردستانية والذين لم يكونوا يحصلون على أي مساعدة من أي طرف، ويعد هذا الإجراء خطوة لتحسين الوضع المعيشي السيئ الذي كان يعيشه هؤلاء في السنين السابقة حيث كانوا يواجهون حصارات عدة خارجية وداخلية.

وقد اعتبرعدد من هؤلاء المثقفين أن هذا الإجراء يخدم الأدب والفن والثقافة الكردستانية في هذه المرحلة، حيث يشجع الأقلام أن تستمر في مسيرتها دون مجاملة السلطات أو الأحزاب التي لها دور في الساحة.

يذكر أن الصحافة المستقلة الحرة نشطت في كردستان العراق بعد الإطاحة بصدام حسين، حيث دأبت على نقد الأحزاب الكردستانية وسياساتها، بل نشرت وثائق حصلت عليها عن علاقة بعض هذه الأحزاب أو الشخصيات السياسية الكردية مع النظام السابق، وقد أحدثت هذه الوثائق ضجة في الأوساط الكردية، وأجبرت بعضا من هؤلاء إلى مغادرة كردستان العراق أو الانعزال عن العمل السياسي.

كما شهدت كردستان العراق انتعاشا ثقافيا وفنيا بعد صدور العديد من القوانين التي كفلت حرية الصحافة وممارسة العمل الأدبي والفني مما ساعد على تشكيل المئات من الصحف والمجلات سواء اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية والفصلية، وكذلك الفرق الفنية والجمعيات الأدبية.

يذكر أنه يوجد في كردستان العراق إضافة إلى الصحافة المقروءة عشرات من محطات الإذاعة والتلفزة المحلية تنتشر في المدن الرئيسة بعضها تابع للأحزاب العاملة في الساحة وأخرى أهلية ومستقلة، إضافة إلى محطتين فضائيتين كرديتين، مع وجود خطط لمحطات فضائية إضافية تنوي بعض التوجهات السياسية في كردستان فتحها، منها الاتحاد الإسلامي الكردستاني.

تعطلت عنها...!

ماجد موجد

لم يكن سؤدداً
ولم تعطها غايتها
من الخجل والضوء
كانت بردانة وحائرة
حياتك...
❖❖❖❖
وأنت
متلفعاً كنت... وآمناً
في ضباب ألفته.. فغشيك اليأس..
❖❖❖❖
فراء
وجمر
وذكريات..
هذا ما تريد لحياتك
أن تكون بعيدة أيضاً
ومشعة في لحظة الكبر
❖❖❖❖
لكنها بردانة..
❖❖❖❖
وأنت.. برغم حشدك
لكنك في الضجر تتجمع
ووحدك تنبت
❖❖❖❖
عسل
وأجراس
وتصفيق

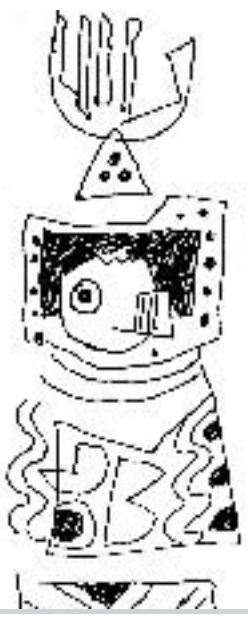

هكذا تظنها..
السماء التي ظهيرها ماضيك وأمانيك
وحيث أنك تحلم
فقد جفلت سماؤك
وانكسر سقفها
سقف حياتك الوحيد
❖❖❖❖
سمعوا
ورأوا
وتكلموا
عن دبق صوتك المستغيث
ومن بعيد..
من بعيد تفشت رائحته الحارة
لكن حياتك
مركونة ظلت
في الحيرة والارتعاش
❖❖❖❖
الذاكرة
والأغنية
والكلمات
هذا ما تبقى لحياتك
وهي تتسع وتتسع..
حتى غدت عرضة للنمل
نمل الكراهية
أو نمل النسيان
❖❖❖❖

الأسطوري المحبوس

ناجح المعموري

(١)

الأسطوري محبوس، كامن فينا، متجذر في السلوك ونحن أكثر التصاقاً به وتكوناً منه، حتى كون الأسطوري جزءاً مهماً من تفكيرنا. وساهم بصياغة الجذور المبكرة لوعينا من خلال المتراكم وبطبقات. فإنه - أيضاً - اختار الحبس مكاناً أزلياً، مكانه الداخلي، الذي ظل ملاحقاً لنا بتأثيراته العديدة والكثيرة، وارتضى مشاركاً بوعي وبلا وعي في الكثير من التصورات وينحاز مختاراً لنا، وفي أحيان الضد منا، أو إلى الضد من الآخرين، ودائماً يكون معناه استعاري.

لكنه في كل الحالات والمواقف، ظل محبوساً، واكتسب قوة كبيرة من حبسه، ومن ضيق مساحة الحبس. وأرى بأن الأسطوري أكثر خطراً عندما يظل محبوساً، لأن طاقته تتضاءل في الحبس الدائم والمستمر، ولا يعرف التجدد إلا بالتحرر، حتى ولو كان مؤقتاً، وهو في تحرره مدفوع بعلاقة الآخر معه، بوصفه عقلاً أو وعياً يستلمه ويعاد إيقاظه عبر الاشتغال عليه، وإعادة الاستثمار والصوغ، حيث يستعد يقظته في لحظة هي خالدة عبر استثمار الأنماط الأولى، ومن خلال الصحوة الآنية، والتي تغادره عندما يستعيده الحبس مرة ثانية. إن معاودة إنتاجه إنقاذ له، كله أو بعضه في صوغ معاصر، سرداً، أو شعراً وتشكيلاً، نحتاً أو عمارة. فالأسطوري أرتضى - وهكذا يبدو لي - حبسه في دواخلنا، مثلما استسلم أمامنا، كي نلعب به، لعب الخبرة والمهارة ومنذ لحظة الأزل الأولى وارتضى استمراره عبر العصور الطويلة، حتى وقفنا أمامه، نحمل دهشة رموزه، وصحوة مجازه وقوته الدلالية. وكلما استمر تحريره الثقافي، فإن حبسه يتكرس ويتراكم الراسب.

الأسطورة محكومة بالتحول، وارتحال البنية المجازية فيها وهذه حكمتها الأزلية، والتي ستظل حتى الأبد.. إنها باقية من خلال طاقة المجاز فيها وقوته على المواصلة والاستمرار والقبول بالتبادل الاتصالي، لأنها - الأسطورة عبر مجازها - تقول معناها وتقصد شيئاً غيره، ومختلفاً، إنها طاقة القراءة الاختلاف التأويل، وانفتاح الشعر والإبقاء على رموزها الأزلية، والباقية حية، على الرغم من استمرار الحبس، لأنها حاملة للأنماط البرية الأولى. نستدعيها من الراسب فينا ونوقظ شحناتها الرمزية الخلاقة، ونمارس عليها - رموزها - بعثاً وتجاوراً ومحاولة لتجديد قشرتها، أو ثوبها بواسطة الاستثمار المغاير، الخلاق، نعود إليها إلى رموزها، لأن عصرها بخيل برموزه كما قال العالم يونغ.

(٢)

نحن نعيش وسط مكان خلق أساطيره منذ القدم وتحولت تلك الأساطير أدباً وتاريخاً، صاغت أنساقاً ثقافية / ودينية، واعتقد بأننا أكثر الشعوب إنتاجاً للثقافة، الدين، الأدب. وبالامكان الإشارة وبحماس إلى أن الأسطوري المحبوس وبتنوعاته المروية، والمحاولة خلاصاً وتحرراً هو أول المرويات أو الأغنيات والرقصات أو الرسوم على الجدران الكهفية. في تاريخ المعرفة.

الأسطوري أول ما استمعنا إليه قبل ولادتنا، وقاتلنا به بعد الموت، عبر الامتداد المعقول وغير المعقول. لأنه حاضر، ماض، ومستقبل كما قال شتراوس، وهو حقيقة وكذبة، واقع وتاريخ، واقع ووهم، وما بين الحقيقة والوهم، ينشأ وهم التراكم الذي يمنح الأسطورة بريتها وبكريتها، حتى تحولت من بنية وهم من خلال ديمومة العلاقة، إلى حقيقة من حقائق المخيلة والخطاب.

إن الشعر أكثر المنقذين للأسطوري من سجنه، لكنه أيضاً يركز إحساسنا بالسجن المهين عليه، لأن الأسطوري رحم للشعر، والشعر سياج للأسطوري من سجنه.. ولا يمكننا النظر للأسطوري بعيداً عن الشعر، وقراءة الشعر بعزل مفترض عن الأسطوري.

الشعر، هو الفن الذي استعان به الأسطوري للتخلص من قسوة النثر. ولذا ارتكنت إليه الديانات البرية وصاغت به أساطيرها، كي تمنحها ديمومة البقاء والتأثير من خلال الموسيقى، موسيقى إيقاع الشعر وتناغم الأسطورة وإياه. إن وسائل التعبير الأولى والتي كانت خارج محيط الشعر وسائل فاسدة / اندثرت في اللحظة التي ولدت فيها. وبتعبير آخر كان الشعر معبوداً وثنياً في التعبير والتبادل.

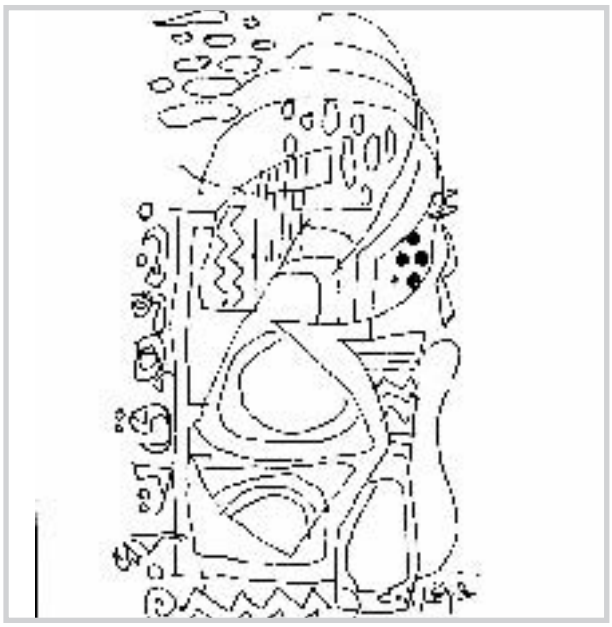

(٣)

الشعر، هو الذي سحب المحبوس إلى فضاء تحرري، متمثل في المرتلات والأغاني والطقوس، لكن تحرره مؤقت، لأن الحبس سرعان ما يختار مكانه الأول بانتظار زمن آخر، يحرره مؤقتاً، والأسطوري متحرر، مثلما هو سجين. متحرر، لأن الآخر المنتج، هو الذي يسعى إليه ويحرره، وبعد الانتهاء من إنتاج نص التحرير، يعاود السجين قدره ويلوذ بالحبس /التغيب/ الغياب. والقراءة له، تعني في واحدة مما تعنيه الحضور، وإمساك الماضي وسحبه معاصراً وحاضراً.

في الأسطوري غياب للمعنى وحضور له. وهو الحبس والحبس إستلامات المعنى الكلية /الإحصائية/ والرياضية. وإذا غاب المعنى الداخلي العميق - التحرر - زالت قدسيته وارتضى بالأدب فضاء جديداً له. إلا إن المحرر يختار دلالته، والمحبوس ينحاز لاتساع المعنى الكامن في الصور والرموز والإشارات، وتناسل البنى والعلاقات لحظة ارتحالها. ويظل المحبوس براقاً في فضائه، وملتمعاً، لا ندري إن كان بريقه والتماعه في لمعان شيء أو نور، أو إضاءة القراءة المختلفة للسائد/ والماثل.

إن المحبوس نور نجهل مصدره ونعرفه، نحس به، ونستعين عليه بالخلق والإبداع، ويعاندنا بعد التمكن منه، حيث يعود إلى منطقته الواسعة والضيقة في آن واحد، والأسطوري هو الشعري، والسجين الأزلي الذي اختار سجناً لا مثيل له في المخيلة الأبدية.

إن الكمونية هذه (تقبع في جذر التوتر الذي غالباً ما يتم التحدث عنه في سياق استخدام المجاز اللغوي. فالمجاز - كما قال أوين بارفيلد - يشرك توتراً قائماً بين معنيين غير متوافقين ظاهرياً. لكنه أيضاً يشرك توتراً بين ذلك الجانب من أنفسنا الذي يخبر اللا متوافقين كنوع من الوحدة اللغزية الغامضة).

(٤)

الأسطورة نتاج الوعي، قبل أن تكون تبدياً للمخيال وفي هذا الرأي استفادات لتوصلات شتراوس ومن قبله ماركس، لذا فإن الأسطوري:

١- تاريخ ومخيلة.
٢- واقع وغرائبي
٣- حقائق وأكاذيب

إن تاريخية الفحص الثقافي للأسطوري، أكدت بأن الأسطوري حقيقة تمركزت بيسر وسهولة، حلقات مهمة وخطيرة، قادتنا إلى مراحل تاريخية وبالإمكان الاستناد إلى عدد من الأساطير السومرية والأكدية ومنها ملحمة جلجامش والخليقة البابلية لمعرفة المراحل الحضارية المنتجة والمعبرة عن نوعية ومستوى الصراع الثقافي، والديني الذي أفضى بهما، وانطوت كل واحدة من تلك النصوص العديدة على إشارات لحقائق موضوعية وتلك الإشارات كرست صفة الأسطوري المحبوس في التاريخي. والتاريخي الكامن في الحبس الأسطوري.

وفي محاولاتنا الجديدة لإعادة قراءة/ وفحص الأسطوري مرة جديدة، نحرره عبر انتزاعه من مهاده الأولى. لكننا نحكم حبسه مرة ثانية. وهنا تكمن أهمية وخطورة الأسطوري الكامن/ الثاوي، والذي ولد متشكلاً وظل راسباً، كي تتكرس أهميته وتتبدى خطورته. ويخفي عبر كمونه أشياء ويقول شيئاً أو أكثر، ولكنه لا يعطي مفاتيح أسراره لأنه إذا سلمها، فقد صار مكشوفاً مثلنا، وتنازل عن هويته كمحبوس.
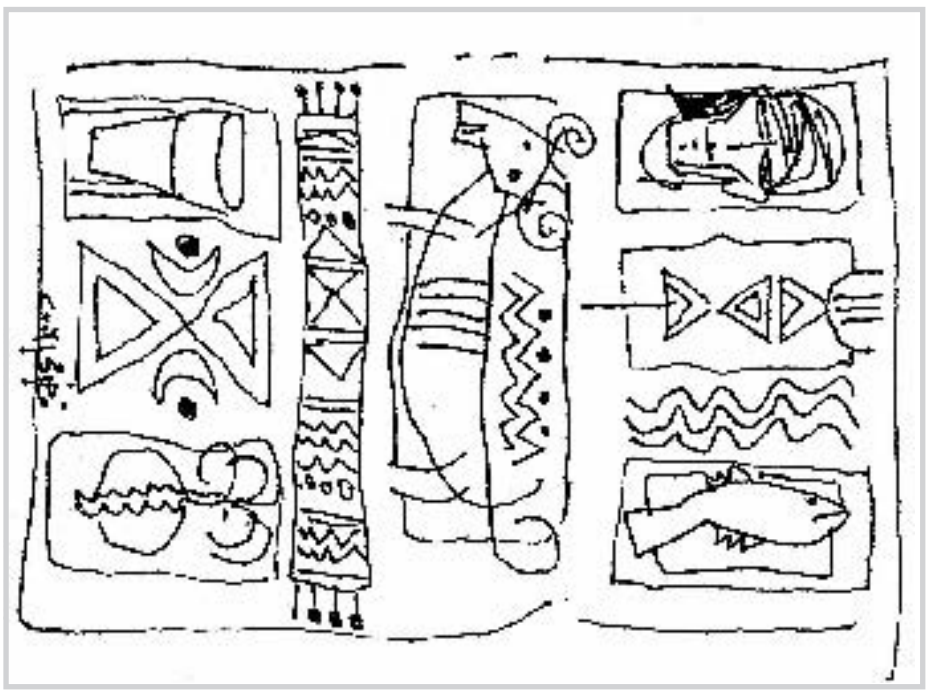
وعلينا أن نتعامل مع الأسطوري المحبوس بوصفه حقيقة نصية اختارت الشعر منذ الأزل، ولذا اعتبر ياكوبسن الشعر والأسطورة مكملين لبعضهما. وقال الشاعر الفرنسي لوران غاسبار: أن الأسطوري موقد للشعر. والأسطوري فضاء تعبيري مهم بغض النظر عن اختلافات المدارس والمناهج والمتفقة حول الأهمية الكامنة فيه.